التحنيط عند قدماء المصريين

التحنيط فن مصري قديم ظهر قبل حكم الفراعنة. والسبب في ايجاده ان القدماء كانوا يعتقدون ان الروح ترجع بعد الموت لتزور جسدها فاصبح لحفظ الجثة عندهم اهمية عظيمة. وقد دونوا هذه العقيدة القديمة الجليلة في قراطيس الموتى ذاكرين ان الانسان مركب من روح وجسد وشبح. اما الروح فيرمز لها بباشق لهُ رأس انسان. واما الجسد فهو الجثة المحنطة واما الشبح فيرمز لهُ بالتماثيل التي كانت توضع مع الميت في قبره كبيرة كانت او صغيرة وكلها حافظة لشكله وهيئته الا ما صنع منها على هيئة التماثيل المسماة عندهم (اشبتي) اي المجيبة عند النداء يوم الآخرة. فمتى اقبلت الروح لزيارة الجثة ووجدتها محفوظة تسر برؤيتها فان كان قد لحقها الفناء ولم تجدها ألفت التماثيل التي على هيئة جسمها فان لم تجدها اكتفت برؤية التماثيل الصغيرة التي تحفظ في القبر. وكانوا يجعلون جثث موتاهم في باديء الامر على هيئة الانسان القاعد القرفصاء ويدفنونهم على احد الجانبين بحيث تكون الركبتان متقاربتين من الذقن والقدمان من المقعدة ويكون الرأس منعطفاً على الجسد قليلاً واليدان موضوعتين على الوجه كما كان جنيناً في احشاء امهِ حتى يتيسر لهم بذلك دفن الجثة في لحدٍ صغير (١)

وقد نفى الدكتور اليوت سمث (Elliot Smith) في كتابهِ المسمى (Notes on Mummies) ما قيل عن استعمال العقاقير لحفظ الجثث من التعفن في ذلك العصر القديم فقال: لقد فحصت مستعيناً بعمليات التحليل وغيرها المئات من المومياءات المصرية القديمة التي يرجع تاريخها الى ما قبل زمن الفراعنة فلم اعثر في مومية منها على اثر من العقاقير ولا على طريقة خصوصية لحفظها من التعفن ولبقائها زمناً مديداً. ووافقهُ على ذلك (شمت Schmidt) الطبيب (٢)

وعليهِ يظهر ان القدماء الذين عمروا ديار مصر قبل حكم الفراعنة كانوا يكتفون بدفن موتاهم في لحود عميقة تاركين حفظ الجثث الى تأثير فعل الاقليم والتربة التي

(١) Dr Wood Jones in the Archeological Survey of Nubia, Report 1907—1908 Vols II 1910

(٢) Cairo Scientific Journal Vol. II No. 17 p. 141 Feb. 1908.

يلحد فيها الميت . ولما حكم الفراعنة جدّت طرق متنوّعة في فن التحنيط من ذلك دفن الجثة في درج مخصوص وبجانبها بعض لوازم المعيشة كالمأكولات وبعض آلات الدفاع من الاسلحة والتمائم ثم تقدموا في التحنيط فادخلوا فيه الصموغ والعقاقير الواقية للجسم من التعفن والانحلال وتفننوا في استعمالها بطرق متنوّعة وبهذا التقدّم السريع والاجتهاد المتواصل وضع المصريون فنّ التحنيط ودونوهُ في كتبهم وآثارهم على اساس متين . وكان للمحنطين رئيس يمتاز بحسن درايته ولهُ الاشراف التام على الاعمال التي يجريها المحنطون تحت رئاسته وادارته وهو الذي يعين قيمة التحنيط ويحدد نفقات ما يطلبهُ اهل الميت من انواع التحنيط التي توافقهم اذ كان لها عينات ونموذجات تعرض عليهم اغنياء كانوا او فقراء . ويحيط بهذا الرئيس نفر من المساعدين كالقسوس والحملة والعامل المكلف بفتح بطن الجثة لاخراج احشائها الخ . . وكان في بيت التحنيط جميع الادوات اللازمة للعمل مثل المناشير والحبال والتمائم وانواع الزخرف والحلي . وينقسم هذا البيت الى ثلاثة اقسام الاول يسمح لاقارب الميت بالدخول فيهِ والثاني لا يدخلهُ الاَّ المحنطون . والثالث كان معدًّا لتسليم الجثة لذويها بعد تحنيطها . ففي القسم الاول كان اهل الميت يتفقون مع المحنط على نوع التحنيط الذي يختارونهُ لميتهم . وقد ابان هيرودوتس المؤرخ اليوناني كيفية هذا التحنيط في الجزء الثاني من كتابهِ وهو اقدم كتاب ظهر عن التحنيط في عصر اليونان فقال : —

كان عند المصريين القدماء رجال اختصوا بفنّ التحنيط وكانوا يعرضون على اهل الميت نموذجات صغيرة من الخشب تمثّل انواع التحنيط من غالٍ ورخيص فيختارون منها ما يشاؤون وتنقسم هذه النموذجات الى ثلاثة انواع يختلف كل منها عن الآخر باتقان الصنعة وكثرة الزخرف ومتى اختار اهل الميت ما يريدون اتفقوا بعدئذٍ على الثمن ثم انصرفوا من حيث جاؤوا وينتظرون عقب ذلك المدة المعينة للتحنيط فيها يجدّ المحنطون في العمل على الاسلوب الذي حصل الاتفاق عليهِ . قال واليك انواع التحنيط الثلاثة مع بيان اثمانها

يبدأ المحنطون باخراج المخ بواسطة قضبان عقفاء من الحديد فيخرجون منهُ ما يمكن التوصل اليهِ في الجمجمة وما بقي يتأصلونهُ بعقاقير يقذفونها في مجاويف الجمجمة . ثم يفتحون الخاصرة بسكين حاد من حجر الظر يستخرجون من

هذه الفتحة محتويات الجوف ثم ينظفونها من جميع الفضولات ويضعونها في نبيذ البلح وفي العقاقير العطرية ويملأونها بالمرّ النقي ومسحوق الالسون وانواع العطريات الاّ الكندر ثم يخيطون الفتحة ويضعون الجثة بعدئذ في سائل النطرون فتمكث فيه سبعين يوماً كاملة . وفي نهايتها يغسلونها ثم يلفونها بلفائف من الكتان مغموسة في الصمغ ويسلمونها الى اهلها وهؤلاء يضعونها في تابوت من خشب لهُ غطاء على هيئة الانسان ثم يضعونهُ قائماً بجوار حائط مُزلم وهذا اعظم واتقن نوع في التحنيط المصري

اما الطريقة الثانية وهي دون الاولى في القيمة واسهل منها في الصنعة فكان يفضلها بعض الناس لقلة تفقاتها وسهولة عملها وهي انهم كانوا يبدأون بادخال زيت السدر في جوف البطن من طريق الشرج ثم يخيطون فتحة الشرج لحبس السائل ويضعون الجثة في ماء النطرون المدة المقرّرة وهي سبعون يوماً حتى اذا ما انقضت هذه المدة طفقوا منها زيت السدر فيخرج مندفعاً بجميع ما اذابهُ من الاحشاء بينما يكون ماء النطرون قد اهرأ العضلات ولم يبقَ من الجثة بعد هذه المدة الاّ هيكلها العظمي المغطّى بالجلد فقط ثم تسلّم الجثة بهذه الحالة لاهلها

اما الطريقة الثالثة وهي للفقراء والمساكين فكانوا يغسلون البطن بزيت بزر الفجل ثم تنقع الجثة في ماء النطرون مدة السبعين يوماً ثم تسلم بعد ذلك لذويها

وكان من عادة المصريين ان لا يسلموا للمحنطين جثث النساء ذوات المقامات العالية ولا جثث حسان النساء ولا جثث الشهيرات منهن الاّ بعد مضي ثلاثة ايام او اربعة من وفاتهن حفظاً لكرامتهن

ثم اتى ديودورس الصقلي بعد هيرودوتس بنحو ٤٤٠ سنة وكان كاتباً مشهوراً فذكر شيئاً عن التحنيط عند قدماء المصريين وأفاض في شرح الحداد عندهم فقال: جرت العادة عند المصريين الاقدمين انهُ اذا توفي أحد اقاربهم مرغت النساء رؤوسهن بالطين وجعلن يندبن ميتهن الى ان يدفن وفي هذه المدة يحرم اهل الميت على انفسهم شرب الخمر والاستحمام واكل اللحوم والتقمش بالملابس الفاخرة . قال وكانوا يعرفون ثلاثة طرق للتحنيط الاولى غالية القيمة والثانية متوسطة والثالثة رخيصة . وكان المحنطون يتلمذون الفنّ عن آبائهم واجدادهم ويسألون اهل الميت عن نوع التحنيط الذي يريدونهُ لميتهم وبعد الاتفاق بينهم يستلم

المحنطون الجثة لاجراء اللازم فما فيبدأ رئيس المحنطين بوضعها على الارض ويعلم على خاصرتها في الموضع اللازم شقه ثم يأتي العامل المنوط بالشق ويشق الخاصرة في المحل الذي علمهُ الرئيس حسب الاصول المتبعة عندهم ثم يفرّ هارباً الى الخارج فيقتفيهِ القوم رمياً بالحجارة وهم يلعنونهُ (لفظاعة هذا العمل في عيونهم) ثم يلقون عليهِ ما يجدونهُ امامهم من القاذورات لانهم كانوا يعتقدون ان كل من أهان او جرح او أضرّ جثة انسان فهو جدير بالكراهة واللعن . اما المحنطون فكانوا محترمين مبجلين لانهم كانوا اصدقاء للقسس ولباقي طائفة المعابد وكانوا يدخلون المعابد معهم أسوة بالقسس فلا يعارضهم أحد . وبعد شق الخاصرة يدخل المحنط يدهُ في الجوف، ويخرج منهُ الاحشاء ما عدا القلب والكليتين لانهُ كُلف بحفظها عامل آخر فينظفها بنبيذ البلح ويدعكها بمسحوق العقاقير العطرية ثم تغسل الجثة كلها وتدهن بزيت السدر مضافاً اليهِ عقاقير اخرى . وهذا العمل يقتضي ثلاثين يوماً ثم تدهن بعد ذلك بالمرّ والآنسون وما اشبهها من العقاقير التي من خاصيتها حفظ الجثة من التعفن والانحلال وتعطرها بالرائحة الذكية الطيبة ثم تسلم الى اهلها وهي سليمة الاعضاء الظاهرة حافظة لهيئة الوجه وجسمهِ الطبيعي الحيوي بحيث يتيسر لكل من رآها من اهلها معرفتها بدون تردّد ولا ارتياب . وبهذه الطريقة كان اعاظم القوم من المصريين يدفنون موتاهم في قبور جميلة ويتعهدونها من وقت الى آخر بالزيارة والاصلاح فكانوا يحظون برؤية اباءهم واجدادهم وأقاربهم السابقين فترتاح انفسهم الى ذلك . ولنذكر هنا عن كتاب بتجرو ما يتكلفهُ التحنيط بوجه التقريب :

قيمة النوع الاول من التحنيط	١٨٠	جنيهاً
والنوع الثاني	٦٠	جنيهاً
والنوع الثالث	٤	جنيهات

ويظهر من هذه النفقات انهُ كان يتعذّر على الفقراء ان يدفنوا ولو اقلها لذلك كانوا يجنحون الى اتخاذ طرق غيرها تناسب حالهم من ذلك ما قالهُ (مايه Maillet) من انهم كانوا يضعون الجثة فوق طبقة من الفحم ملفوفة ببعض الملابس ويضعون فوقها طبقة رملية يبلغ سمكها سبع اقدام او ثمان . ومن المعلوم ان للفحم والرمل خاصية لامتصاص السوائل وللفحم وحدهُ خاصية تمنع التعفن . اما استخراج

المواد المخية من الخياشيم فقد أثبتها بالمباحث العلمية كل من (بتجرو Pettigrew) و (رويل Rouelle) فقال الاول يظهر ان قضبان الحديد كانت تستعمل لاخراج المخ من الخياشيم بخرقة طبقة العظم من فوق التجويف الانفي فتثقب فتحة قدرها سنتيمتر تقريباً . ومنها يخرج المخ مندفعاً بعوامل السوائل المذيبة فيملاون فراغها بالقمائف اذ وجد بعض هذه القمائف باقية في تجويف الجمجمة مما يبلغ طولهُ تسع اقدام . وزاد الاستاذ اليوت سميث على ذلك فقال : ان كل محتويات تجويف الجمجمة موادّ مخية محضة لا تستوجب صعوبة لمعرفتها وانها وجدت في كثير من الجثث سليمة جافة في موضعها ومحفوظة على طبيعتها مما يدلّ على عدم استخراجها بالقضبان الحديدية الآنفة الذكر . وبهذه الحالة شاهدنا معظم الجثث التي وجدناها في المقابر المصرية القديمة . ثم قال وشاهدت قدراً كبيراً يرجع تاريخهُ الى ما قبل حكم الفراعنة فوجدت فيهِ زهاء الخمس مائة جثة لا تزال مخوخها باقية في محلها لم يمسها انسان . وقد حفظ المخ ايضاً في الجثث المدفونة في البقاع الجافة خصوصاً اذا كان اللحد محتجباً عن الهواء . وبذلك نعلم ان الدفن في مكان جاف بعيد عن الهواء يحفظ المخ في التعفن والانحلال . فان دفنت جثة في بقعة رملية مرتفعة عن سطح فيضان النيل وكانت جافة بعيدة عن الرطوبة بقي مخها سليما محفوظاً من كل تلف مهما طال عليهِ الدهر سواء كانت الجثة قديمة قبل حكم الفراعنة او كانت من عهد الاسر القديمة أو المتوسطة او الحديثة او من العصر المسيحي . ولا يجد الباحث ادنى صعوبة في تمييز أجزاء المخ سواء كانت في الجهة الوحشية او الانسية لكنهُ يشاهد صغر في حجم الثار البصري (Orbital Operculum) وعلى ذلك يجوز ان يكون الجزء المعروف باسم (الجزيرة Insula) قليل الظهور في عصر القدماء محجوباً في الجثث الحديثة العهد (١) أما الامعاء فقد شوهدت بعض الاحيان وقد نزعت من الجسد وغسلت بنبيذ البلح وعطرت بالطيوب ثم اعيدت الى مكانها فبقيت محفوظة فيهِ

وكان المصريون يجعلون احشاء موتاهم مرصودة لاربعة من الحفظة وهم (آمست) و (حبي) و (داوموقف) و (قبحسنوف) ويقولون انهم اولاد

(١) Journal of Anatomy & Physiology, New Series, No. XVIII, 190 p. 376 by Elliot Smith.

المعبود حوريس . أما الاول فشكله كالانسان والثاني كالقرد والثالث كالثعلب والرابع كالباشق . هكذا وُجدت صورهم في درج (آني) وعلى كثير من الآثار وكانوا يرصدون للمعبود الاول الامعاء الغلاظ وللثاني الامعاء الدقاق وللثالث القلب وللرابع الكبد . وفي الواقع انهم وضعوا هذه الاحشاء في اربعة قدور لها اغطية في هيئة رأس الانسان او القرد او ابن آوى او الباشق وكل واحد منها يشير الى أحد الحفظة المذكورة آنفاً وكانوا يضعونها في اللحد الى جانب التابوت ولم يكتفوا بذلك بل رسموا صورها على تابوت الميت (١) وكانوا يصلقون هذه الاغطية في القدور بالجبس إذ علقوا على حفظ الامعاء اهمية عظمى لاعتقادهم انهُ يترتب على وجودها بقاء الميت . ولحرصهم عليها أودعوها بعض الاحيان تحت لفائف الجثة (٢) . اما غلو التحنيط فانهُ يرجع الى غلو المقابر والى اتقان الرسوم التي تحلّى بها الجثة فقد وجدت بعض هذه الجثث مغطاة بالرسوم مزينة بانواع الحلى خالية من شق الخاصرة فهي تخالف غيرها مما سبق الكلام عليهِ (٣) وما ذلك الاّ لكثرة الاعتناء بها والحرص عليها

أما وضع الجثة في سائل النطرون مدة السبعين يوماً المقررة فكان ينشأ عنهُ عادة سقوط بشرة الجلد كما عاين ذلك اكثر الباحثين . لكنهم وجدوا الاظافر باقية في محلها بل ومثبتة في مكانها بخيوط إما دلالة على سقوطها وإما على نزعها عقب نقع الجثة في ماء النطرون

قال (ديودور) ان الجثة بعد تحنيطها تعطّر بزيت السدر والمرّ والآنسون وغيره وقال (بتجرو) في كتابهِ ان من امعن النظر في الجثث المصرية القديمة تحقق انها وضعت في محل مرتفع الحرارة لان الصموغ والعطريات واصلة فيها الى منتهى طبقات عظام الجسد . ولا يمكن وصولها الى هذا الحد من غير الحرارة الشديدة التي تقتل الحشرات وتذيب المواد الدهنية الباقية في الجسم فتتخلّص الجثة بذلك من التعفن والانحلال

الدكتور حسن كمال
ستأتي البقية
نجل احمد بك كمال الاثري

(1) Dr. Wallis Budge in the Dwellers of the Nile p. 160.
(2) ,, ,, ,, ,, The Mummy 1893, p. 161
(3) Pettigrew p. 60.